

الدرس الرابع والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .
أما بعد ..

الحديث الثامن والعشرون

عن أبي نجيح العرياض بن سارية رضي الله عنه قال : وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة بليغة وجلت
منها القلوب وذرفت منها العيون فقلنا يارسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا قال أوصيكم
بتقوى الله عز وجل والسمع والطاعة وإن تأمر عليك عبد فإنه من يعش منكم فسيروا
اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم
ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة "
رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح

الشرح..

هذا الحديث فيه بيان أهمية السنة والتمسك بها والمحافظة عليها والحذر من محدثات الأمور
ومن البدع المخترعة التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان ، وفيه تحذير النبي صلى الله عليه وسلم
الأمّة من الاختلاف وأسبابه وموجباته ، وحثه صلى الله عليه وسلم الأمّة على لزوم ما يكون به اجتماعهم
وإتلافهم وهو لزوم السنة ومجانبة البدعة .

وقد وصف العرياض بن سارية رضي الله عنه موعظة النبي عليه الصلاة والسلام بأنها موعظة مؤثرة جداً ، ووصفها
بصفات ثلاث :

الصفة الأولى : أنها موعظة بليغة ؛ أي جاءت بألفاظ جزلة وعبارات حسنة ، وكلمات
عظيمة.

الصفة الثانية : أن القلوب وجلت ؛ أي أن هذه الموعظة كانت مؤثرة للقلوب ؛ فحصل
للقلوب وجل ، والوجل هو الخوف ؛ ومن صفات أهل الإيمان وجل قلوبهم عند ذكر الله
وتخويفهم به سبحانه وتعالى {إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم}

والصفة الثالثة : أن العيون ذرفت بسماع هذه الموعظة ؛ وهذا فيه بيان تأثير وعظ النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه رضي الله عنهم .

والموعظة هي النصح الذي يصحبه ترغيب وترهيب ؛ فإذا نصح وبيّن مع ترغيب وترهيب بذكر الثواب والعقاب وذكر الجنة والنار وذكر الثمار والأضرار ؛ فهذا يقال له "وعظ" ، والنبي عليه الصلاة والسلام كان يتخول أصحابه بالموعظة ، ويكون لها الأثر البالغ على قلوبهم ونفوسهم . والناس بين وقت وآخر يحتاجون إلى من يعظهم ويذكرهم بالله ، ويذكرهم بالجنة والنار ، ويذكرهم بالثواب والعقاب ؛ حتى تلين القلوب وتقبل على الله تبارك وتعالى طاعةً لأمره واجتناباً لنهيهِ سبحانه وتعالى .

" ذرفت منها العيون " : أي دمعت .

" فقلنا يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا " : أي كأن هذا الوعظ الذي سمعناه وأثر فينا هذا التأثير كأنها موعظة مودع ، و المودع هو الذي عزم على السفر وأخذ يودع أصحابه ، والمودع الذي له مكانة عند أصحابه ومنزلة في نفوسهم كلامه فيهم عند الوداع له شأن وله مكانة ، وعادة وصية المودع تكون جامعة لأهم المطالب وأعظم المقاصد التي يريد المودع أن يتركهم عليها ، ويرغب منهم أن يحافظوا عليها ؛ فعادة وصية المودع تكون جامعة يحاول المودع أن يأتي لهم في وصيته بمجامع الأمور ومهمات الأشياء .

ولهذا ينبغي أن نعلم أن هذه المقدمة من العرياض بن سارية هي في الحقيقة توطئة لبيان أهمية الوصية التي أوصاهم النبي صلى الله عليه وسلم وبيان عظم شأنها، وأنها وصية عظيمة جليلة ينبغي على كل مسلم أن يحافظ عليها وأن يعنى بها .

" فأوصنا " : لم يقل العرياض : - قلنا لرسول الله أوصنا فقال أوصيكم بتقوى الله- ؛ بل جاء بهذا الموقف الذي حصل والموعظة التي وعظهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بها وأحسوا كأنها موعظة مودع ؛ فطلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يوصيهم .

وقولهم " فأوصنا " مرادهم بذلك : اجمع لنا الوصية في كلمات ؛ لأن الموقف والسياق يدل على هذا الأمر ؛ لأنهم سمعوا من النبي عليه الصلاة والسلام موعظة وصفوها كأنها وصية مودع ؛ فهذا التأثير والإحساس في هذا الموقف جعلهم يطلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم وصية تجمع لهم أمهات الخير ، وتجمع لهم أبوابه ومفاتيحه .

"أوصيكم بتقوى الله عز وجل " : بدأ بها في هذه الوصية الجامعة ؛ فأفاد هذا البدء أن الوصية بالتقوى هي جماع الوصايا وأهمها ، وهي وصية الله جل وعلا للأولين والآخرين من خلقه كما قال سبحانه وتعالى { ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله } وهي وصية الأنبياء لأمتهم ، ووصية نبينا صلى الله عليه وسلم لأمته ، ووصية السلف الصالح فيما بينهم ، وهي وصية متكررة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكثيراً ما كان يوصي بتقوى الله ، وقد مر معنا في حديث معاذ وأبي ذر قوله صلى الله عليه وسلم " اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن " فبدأ هناك بالتقوى كما بدأ بها هنا ، وكما كان يبدأ بها عليه الصلاة والسلام وصاياها .

فهذا يفيد أن الوصية بتقوى الله تبارك وتعالى هي جماع الوصايا وزمام الخير وأساس الفلاح . والتقوى حقيقتها أن يجعل الإنسان بين ما يخشاه ويخافه وقاية تقيه ، وتقوى الله عز وجل أن يجعل العبد بين ما يخشاه ويخافه من سخط الله وعقابه وقاية تقيه ؛ وذلك بفعل المأمور وترك المحذور ؛ كما قال طلق رحمه الله تعالى : " تقوى الله العمل بطاعة الله على نور من الله رجاء ثواب الله وترك معصية الله على نور من الله خيفة عذاب الله " .

"أوصيكم بتقوى الله عز وجل " وقوله هنا " عز وجل " فيه تذكير بعظمة الله وجلاله وكماله وأنه العزيز القاهر الذي لا يُغلب وأنه جل وعلا الذي له الجلال والكمال والكبرياء والعظمة ؛ وهذا فيه من الفائدة أن معرفة الله جل وعلا بأسمائه وصفاته أكبر عون لتحقيق تقوى الله جل وعلا ؛ مثل لو قلت لشخص : اتق الله العظيم الجليل ، اتق الله الكبير المتعال ، اتق الله الذي يعلم السر وأخفى ؛ فمعرفة الله جل وعلا أكبر عون لتحقيق التقوى كما قال الله سبحانه وتعالى { إنما يخشى الله من عباده العلماء } .

"والسمع والطاعة " : أي وأوصيكم بالسمع والطاعة ؛ أي للأمراء ولولاة الأمر .
"والسمع " أي لكلامهم ولما يقولون " والطاعة " لأوامرهم ؛ أي تفعل وتطيع له فيما يأمر .
وهذا شيء أمر به الله جل وعلا وأمر به النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة ؛ قال تعالى { يا أيها الذين ءامنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم } ، وجاء عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الباب أحاديث كثيرة جداً ؛ بل جاء في بعض أحاديثه عليه الصلاة والسلام ذكر هذا الأمر مضموماً إلى فرائض الإسلام كقوله في حجة الوداع " اعبدوا ربكم وصلوا خمسكم وصوموا شهركم وأدوا زكاة مالكم

وأطيعوا إذا أمركم تدخلوا جنة ربكم" فذكر عليه الصلاة والسلام طاعة ولي الأمر مضمومة إلى هذه الفرائض مما يدل على مكانة طاعة ولاية الأمر في الدين .

والسبب في ذلك أن طاعة ولاية الأمر سببٌ لانتظام أحوال المسلمين وتحقيق مصالحهم ودرء الشر والمفاسد والأخطار عنهم ؛ لأن الناس لا يصلح أمرهم إلا بجماعة واجتماع ، ولا جماعة إلا بأمير ولا أمير إلا بسمع وطاعة ؛ فهذه أمور منتظمة ومترابطة ؛ ولهذا فإن السمع والطاعة لولي الأمر سببٌ لصلاح الناس وانتظام أحوالهم وزوال الأخطار والشرور عنهم ، وتحقيق الأمن والسلامة لهم ، إذا كان هناك ولاية وجماعة وإمرة تُقام وتُبنى المساجد وتُقام دور العلم وتتحقق أنواع المصالح والخيرات .

وإذا كان أمرُ الناس فوضى لا ينتظمهم جماعة ولا ينضوون تحت أمير فإن الشر فيهم يستشري والفساد يعظم وتُراق الدماء وتُنتهك الأعراض وتُستلب الأموال ويتسلط القوي على الضعيف لكن إذا كانوا تحت ولاية وإمرة ومجتمعين بسمع وطاعة فإنهم بذلك يتحقق لهم الخير ويدراً عنهم بإذن الله الشر .

ولهذا كثرت عن النبي صلى الله عليه وسلم الأحاديث في هذا الباب ، وعدَّ صلوات الله وسلامه عليه طاعة الأمير من طاعته عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه هو الذي أمر بذلك ؛ فمن أطاع الأمير فقد أطاع الرسول ، ومن أطاع الرسول صلى الله عليه وسلم فقد أطاع الله .

والأمير كما بيّن نبينا عليه الصلاة والسلام له الطاعة في المعروف ؛ قال صلى الله عليه وسلم " إنما الطاعة في المعروف، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق" . فإذا أمر الأمير بمعصية كأن يقول للناس اشربوا الخمر ، أو افعلوا الزنا ، أو يقول لهم لا تصلوا .. أو نحو ذلك ؛ فلا طاعة له . أما إذا أمر بالأمور التي تنظم أحوال الناس وترتب شؤونهم و يلتئم بها أمرهم وتتحقق مصالحهم ؛ فيجب على الجميع أن يطيعوه ؛ وهذا هو المعروف الذي نصَّ عليه النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث " إنما الطاعة في المعروف " .

وفي الآية الكريمة قال { يا أيها الذين ءامنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم } ولم يقل { وأطيعوا أولي الأمر } ؛ وهذا فيه التنبيه - كما قال أهل العلم - إلى أن ولي الأمر ليس له الطاعة المطلقة وإنما له الطاعة في المعروف ، أما إذا أمر بمعصية فلا طاعة له .

" وإن تأمر عليكم عبدٌ " : أي استبد وتسלט وأصبح له الأمر ، وقوله عبد : يَحْتَمِلُ أموراً ذكرها أهل العلم منها المبالغة في تأكيد هذا الأمر وتثبيتته حتى لو افترض وفُدِّرَ أن الذي صار له الولاية واستتب له الأمر عبدٌ فاسمعوا وأطيعوا ، مع اتفاق أهل العلم أن العبد لا تكون له ولاية وليس أهلاً لها ؛ لكن لو فُدِّرَ أن عبداً استتب له الأمر وأصبح بيده الزمام ففي هذه الحال قال اسمعوا وأطيعوا ، وهناك احتمالات أخرى ذكرها أهل العلم سيأتي معنا شيءٌ منها بإذن الله تبارك وتعالى .

" فإنه من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً " : من تطول به الحياة ، وال "سين" للتحقيق ؛ وهذا من آيات نبوته ؛ فإنه عليه الصلاة والسلام أخبر بأمر سيقع ووقع طبقاً لما أخبر ؛ فإن الصحابة رضي الله عنهم الذين طال بهم العمر وعاشوا بعده وقتاً رأوا هذا الذي ذكره النبي صلى الله عليه وسلم . والاختلاف والبدع نشأت في أواخر زمن الصحابة ، وتحديدًا في منتصف خلافة علي رضي الله عنه في السنة السابعة والثلاثين تقريباً أو في حدودها ، بدأت البدع تظهر ، وبدأت تبرز فنشأ في الناس عددٌ من البدع ؛ ولهذا فإن بعض الصحابة الذين أدركوا نشأة البدع وحدوثها ؛ نُقل عنهم نقول كثيرة في ذم البدع - مثل عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر - لأنهم شاهدوا حدوثها ونشأتها بخلاف الصحابة الذين ماتوا قبل ذلك ولم يشاهدوا البدع ، ولكل مقام مقال ؛ من رأى البدع لا بد أنه سيُنقل عنه النقول العديدة في ذمها ، ومن لم يرها فما يُنقل عنه في ذلك سيكون قليلاً .

" فسيرى اختلافاً كثيراً " : أي الاختلاف ليس بالقليل وأيضاً هو اختلاف متنوع - العقائد والعبادات - سيقع الناس في بدع عقدية وعملية .

الناصح عندما يسمع هذا الكلام - فإنه من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً - ما السؤال الذي يجول في قلبه ؟ السؤال هو : ما الحل ؟ ما المخرج ؟ ما سبيل النجاة ؟ فهذا هو السؤال الذي يطرح نفسه في مثل هذا المقام .

وأجاب النبي عليه الصلاة والسلام على هذا السؤال دون أن يُسأل ؛ وهذا من تمام نصحه وحسن بيانه صلوات الله

وسلامه عليه •

" فعليكم بسنتي.. " إلى تمام الحديث : فهذا هو المخرج وهذا هو الحل وهذا هو سبيل النجاة .

" وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة " حدد النبي عليه الصلاة والسلام هنا سبيل النجاة والسلامة من هذا الاختلاف بأمرين لا بد منهما ولا نجاة إلا بتحقيقهما :

الأول : لزوم السنة "فعلیکم بسنتي" : أي الزموها وتمسكوا بها وحافظوا عليها وأكد على هذا الأمر تأكيداً عظيماً ؛ قال : " تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ " : والنواجذ هي الأضراس وهذا فيه بيان الاهتمام بهذا الأمر ، والشيء الذي يُعَضُّ عليها بالأضراس هو الشيء الثمين الذي له مكانة عند صاحبه ومنزلة .

فأوصى عليه الصلاة والسلام بالزوم بسنته وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، والمراد بهم الأربعة الذين تولوا الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين كانت خلافتهم خلافة راشدة وهم : أبوبكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين .

وقد جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " خلافة النبوة ثلاثون سنة " ، وهذه الخلافة هي المعنية هنا في هذا الحديث بقوله صلى الله عليه وسلم " وسنة الخلفاء الراشدين المهديين " ، ولا حظ وصفه عليه الصلاة والسلام لهؤلاء الأربعة - أبوبكر وعمر وعثمان وعلي - بالرشاد والهداية ؛ قال " الراشدين المهديين " وانتبه لهذا الوصف ، والراشد ضد الغاوي، والمهتدي ضد الضال ؛ فوصفهم بوصفين ..

الرشاد ضد الغواية والهداية ضد الضلال ؛ وبهذين الوصفين العظيمين وصف الله جل وعلا نبيه عليه الصلاة والسلام في سورة النجم ؛ قال تعالى { ما ضل صاحبكم وما غوى } نفى الضلال فيه إثبات الهداية ونفي الغواية فيه إثبات الرشاد .

والراشد هو من صلح عمله ، والمهتدي هو من صلح علمه ؛ فقوله " الراشدين المهديين " فيه إثبات صلاح العلم والعمل ؛ فعملهم رشاد وعلومهم هداية . هذه حالهم رضي الله عنهم وأرضاهم صلاح في العلم والعمل .

وذكر هؤلاء بهذا الوصف في هذا المقام تأكيداً لما وجه إليه النبي صلى الله عليه وسلم وهو الأخذ بسنتهم علماً وعملاً ؛ لأن هؤلاء الذين أوصى صلى الله عليه وسلم بالأخذ بسنتهم علماً وعملاً هم أهل رشاد وهداية ؛ بهذا شهد لهم صلى الله عليه وسلم وهم على صلاح في العلم والعمل ؛ فهذا فيه التأكيد للأخذ بسنتهم وهديتهم وطريقتهم رضي الله عنهم وأرضاهم .

قال " فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ... " وإضافة سنتهم إلى سنته فيه بيان لمكانة الطريقة التي هم عليها والهدي الذين هم متمسكون به رضي الله عنهم وأرضاهم .

" وإياكم ومحدثات الأمور " : وهذا هو الأمر الثاني الذي تتحقق به النجاة ؛ وهو الحذر من البدع والمحدثات .

والمراد بـ " الأمور " هي الأمور التي تتعلق بالدين كما يوضح ذلك حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " من أحدث في أمرنا أي ديننا ؛ كأن يُحدث الإنسان عبادة لا أصل لها ، أو ذكراً لا أصل له ، أو نوعاً من القرى لا أصل لها ؛ فهذا الذي يشمل قول النبي صلى الله عليه وسلم " إياكم ومحدثات الأمور " أي الأمور المتعلقة بالدين لأن دين الله تام وكامل ولا مجال للاختراع والاستحسان .

أما محدثات الأمور الدنيوية فلا علاقة لها بالحديث ؛ مثل المخترعات الحديثة العصرية المتنوعة.

" فإن كل بدعة ضلالة " : أي لا تغتروا بها حتى وإن رآها الناس حسنة ، وقد جاء عن بن عمر بسند ثابت أنه قال " كل بدعة ضلالة وإن رآها الناس حسنة " ، وكثيراً هي البدع التي يراها الناس حسنة ويستجودونها ويستحسنونها وتميل لها نفوسهم ويرونها عملاً عظيماً ، بل يبلغ ببعض الناس الجنوح عن الحق بأن يستحسن بعض البدع أكثر من استحسانه للفرائض ؛ ولهذا تراه في سلوكه يحافظ على البدع ما لا يحافظ على الفرائض ، ويعظم البدع ما لا يعظم الفرائض ، ويدافع عن البدع ما لا يدافع عن الفرائض . وهذه رزية ومصيبة عظيمة يتلى بها بعض الناس ، ينشأ على بدعة وتعظم في قلبه فيصبح منافحاً مدافعاً عنها معظماً لها ، وفي المقابل تراه متهاوناً في فرائض الإسلام وواجبات الدين .

" فإن كل بدعة ضلالة " : لا يغتر الإنسان بأي بدعة ، وأي حدث في دين الله ؛ لأن دين الله كامل { اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً } الكامل التام لا يحتاج إلى أن يُكمل وأن يضاف إليه أشياء ؛ ولهذا قال مالك رحمه الله تعالى : من قال أن في الدين بدعة حسنة فقد زعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم خان الرسالة لأن الله يقول { اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً } فما لم يكن ديناً زمن محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه فلن يكون ديناً إلى أن تقوم الساعة .

ولهذا لا يغتر المسلم بقول بعض الناس : بدعة حسنة في الدين ، أو بتقسيم بعض الناس البدع إلى أقسام : بدعة حسنة وبدعة واجبة وبدعة محرمة وبدعة مكروهة وبدعة مباحة ؛ فهذا التقسيم باطل ولا أصل له ؛

البدع قسم واحد وهو : كل بدعة ضلالة ،

وإذا قال إنسان عن أمر من الأمور أنه بدعة حسنة ؛ فعلى ضوء قول النبي صلى الله عليه وسلم "كل بدعة ضلالة" فماذا تقولون له ؟ يُقال له : هذا الأمر الذي تقول عنه أنه بدعة حسنة لا يمكن أن يكون كذلك ؛ فهو أحد شيئين : إما أنه بدعة أو أنه حسنة ، أما أن يكون بدعة حسنة فما تجتمع هذه لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال "كل بدعة ضلالة" فلا يمكن أن يجمع ويمزج بين الأمرين ، إما أن يكون بدعةً فلا يكون حسنةً ، أو يكون حسنةً فلا يكون بدعةً ، ومعنى أن يكون حسنةً فلا يكون بدعةً يعني أن يكون الأمر الذي ادعى أنه بدعة ليس بدعة ؛ أمرٌ جاء في الشرع وثبتت به السنة فلا يكون بدعة .

أما أن تجتمع هاتان الكلمتان فغير صحيح ؛ يعني أن يكون بدعة في الدين وفي الوقت نفسه حسنة فهذا لا يمكن ؛ لماذا ؟ لأنه لو قيل بإمكان ذلك فهذا فيه ما قاله الإمام مالك رحمه الله تعالى "من قال أن في الدين بدعة حسنة فقد زعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم خان الرسالة" ؛ فمعنى هذا الكلام أن هناك أموراً من الدين ومن الشرع لم يبينها النبي عليه الصلاة والسلام وبينها هؤلاء الذين أحدثوها واخترعوها ؛ وهذا طعن في بيانه وطعن في نصحه عليه الصلاة والسلام .

ولهذا على المسلم أن يُعنى بهذه الوصية وبهذه القاعدة الكلية - كل بدعة ضلالة - ؛ فليس هناك بدعة حسنة ، حتى وإن استحسنتها الناس فهي ضلالة .

قال الشيخ عبد المحسن العباد :

[قول العرياض رضي الله عنه "وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظةً بليغة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون" : الموعظة ما كان من الكلام فيه ترغيب وترهيب يؤثر على النفوس ويبلغ القلوب فتتوجّل من مخافة الله ، وقد وصف العرياض رضي الله عنه هذه الموعظة بهذه الصفات الثلاث التي هي البلاغة ووجل القلب وذرف العيون . قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم : والبلاغة في الموعظة مستحسنة لأنها أقرب إلى قبول القلوب واستجلابها ، والبلاغة هي التوصل إلى إفهام المعاني

المقصودة وإيصالها إلى قلوب السامعين بأحسن صورة من الألفاظ الدالة عليها وأفصحها وأحلاها للأسماع وأوقعها للقلوب ، وقد وصف الله المؤمنين بوجل قلوبهم وذرف عيونهم عند ذكر الله قال الله عز وجل { إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون } ، وقال { وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع } .[

الشرح..

تصدير العرياض رضي الله عنه هذا الحديث بقوله "وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة بليغة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون": هذا فيه توطئة لبيان أهمية الوصية الآتية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقوله رضي الله عنه "موعظة بليغة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون" : بيان لقوة تأثير هذه الموعظة التي سمعوها من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن حصل لقلوبهم الوجل ولعيونهم الدمع تأثيراً بكلامه عليه الصلاة والسلام ، وكأنهم أحسوا أن هذا الوعظ وعظ مودع ؛ فطلبوا وصية جامعة فأوصاهم عليه الصلاة والسلام بهذه الوصية الجامعة ؛

ولهذا لا يناسب أن يغيب عن أذهاننا هذا المقصد الذي قدّم العرياض بن سارية هذه المقدمة لأجله حتى ندرك قيمة الوصية العظيمة التي اشتمل عليها هذا الحديث وبينها النبي صلى الله عليه وسلم في هذا السياق المبارك .

[ثانياً : قوله " قلنا يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا " : أي أن هذه الوصية تشبه موعظة المودع ؛ لذا فقد طلب الصحابة الكرام وهم الحريصون على كل خير وصية جامعة يعهد بها إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمسكون بها ويعولون عليها لأن الوصية عند الوداع لها وقع في النفوس ولعل هذه الموعظة كان فيها ما يُشعر بالتوديع لذا طلبوا هذه الوصية]

الشرح..

الوصية عند الوداع لها وقع في النفوس ولها مكانة ، وعادة تكون جامعة ؛ لأن المودع الذي يغادر رفقته وأصحابه وإخوانه يجمع لهم مهمات الوصايا ومهمات الأمور ؛ ولهذا في خطبة الوداع وفي الخطب التي سُمعت من النبي عليه الصلاة والسلام في الوداع جمع عليه الصلاة والسلام جماع الوصايا وجماع أبواب الخير في كلماته العظيمة التي ألقاها على مسامع الناس في حجة الوداع ؛ لأن الحجة التي ودّع

فيها الناس ؛ وقال فيها " لعلني لا ألقاكم بعد عامي هذا " ؛ فكانت وصاياه جوامع وفي مهمات الأمور .

فوصية المودع عادة تكون وصية جامعة مشتملة على مهمات الأمور وعظيم المقاصد والغايات .

[ثالثاً: قوله " أوصيكم بتقوى الله " : تقوى الله عز وجل أن يجعل المرء بينه وبين غضب الله وقاية تقيه منه وذلك بفعل الطاعات واجتناب المعاصي وتصديق الأخبار ، وهي وصية الله للأولين والآخرين كما قال الله عز وجل { ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله } وهي سبب كل خير وفلاح في الدنيا والآخرة ، ويأتي الأمر بتقوى الله في كثير من الآيات لا سيما الآيات المبدوءة بـ " يا أيها الذين ءامنوا " ، وكذلك في وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه .

الشرح..

الوصية بالتقوى هي أعظم الوصايا ومن أحسن ما عُرِّفت به قول طلق " تقوى الله العمل بطاعة الله على نورٍ من الله رجاء ثواب الله ، وترك معصية الله على نور الله خيفة عذاب الله "

[رابعاً : قوله " والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد " : وهي وصية بالسمع والطاعة لولاة الأمر في غير معصية الله ، ولو كان الأمير عبداً ، وقد أجمع العلماء على أن العبد ليس أهلاً للخلافة ، ويُحمل ما جاء في هذا الحديث وغيره من الأحاديث في معناه على المبالغة في لزوم السمع والطاعة للعبد إذا كان خليفة وإن كان ذلك لا يقع ، أو أن ذلك يُحمل على تولية الخليفة عبداً على قرية أو جماعة أو أنه كان عند التولية حراً ، وأطلق عليه عبداً باعتبار ما كان ، أو أن العبد تغلب على الناس بشوكته واستقرت الأمور واستتب الأمن بما في منازعته من حصول ما هو أنكر من ولايته] .

الشرح..

قوله " والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد " : فيه ذكر السمع والطاعة لولاة الأمر عقب الوصية بتقوى الله جل وعلا ؛ وهذا فيه بيان عظم اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الوصية - التي هي بمثابة وصية مودع . بأمر السمع والطاعة لولاة الأمر وتأكيده على هذا الأمر ؛ لأنه أمرٌ في

غاية الأهمية وإن استهانت به بعض النفوس لغلبة الشبهات وكثرة الأهواء ، وأصبحوا لا يبالون بهذا الأمر ، بل أصبح بعض الناس إذا قُرئ عليه بعض الأحاديث التي تتعلق بالسمع والطاعة اشمئز قلبه وكأنه يسمع قولاً منكراً أو كلاماً سيئاً ، مع أن الذي يسمعه هو كلام الرسول عليه الصلاة والسلام ، وبعضهم ربما طوى الكلام !

وعندما نطالع كتاب صحيح مسلم وأبوابه نجد كتاباً في الصلاة ، كتاباً في الصيام ، كتاباً في الحج .. كتاباً في الإمارة ؛ وكتاب الإمارة مليء بالأحاديث التي في هذا الباب ؛ فبعض الناس بسبب غلبة الشبهات وكثرة الأهواء لا يطيق أن يسمع الأحاديث التي في السمع والطاعة ، وإذا سمع تذكيراً بذلك نفر واشمئز من ذلك ؛ وهذا سببه مرض القلب وإلا من الذي ينفر من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا من أصابه قلبه المرض ؛ فأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ليس فيها إلا الخير والصلاح والفلاح والسعادة للناس ؛ ولهذا يجب على المسلم أن يوطّد قلبه على لزوم السنة ؛ فالسنة بركة ، ومن أَمَرَ السنة على نفسه نطق بالحكمة ، يجعل السنة حاكماً على نفسه - لا يجعل الأهواء حاكمة على نفسه - .

" وإن تأمر عليكم عبد " : أهل العلم اتفقوا أن العبد ليس أهلاً للخلافة والولاية ؛ فما معنى قوله عليه الصلاة والسلام " وإن تأمر عليكم عبد "

أهل العلم ذكروا في ذلك احتمالات منها أن ذلك على سبيل المبالغة بالتأكيد على لزوم السمع والطاعة وإن كان ذلك لا يقع .

ومن الاحتمالات لو أن الخليفة ولّى عبداً على قرية أو على مدينة .. ، وذكر أهل العلم في هذا احتمالات عديدة .

والشاهد هو أن من استتب له الأمر وكانت له الولاية فيجب أن يُسمع له ويطاع في المعروف .

[خامساً : " فإنه من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً " : هذا من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم حيث أخبر عن أمر مستقبل وقع طبقاً لما أخبر به صلى الله عليه وسلم ، فإن الذين طالت أعمارهم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أدركوا اختلافاً كثيراً ومخالفة لما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وذلك بظهور بعض فرق الضلال كالقدرية والخوارج وغيرهم] .

الشرح ..

قوله " فإنه من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً " : هذا من دلائل النبوة ؛ ولهذا من عاش من الصحابة وطال عمره أدرك نشأة البدع وبدء حدوثها كبدعة القدرية الذين قالوا بنفي القدر ، ومراً معنا من حديث جبريل عندما جاء نقرأ إلى ابن عمر رضي الله عنهما وقالوا له " إن قوماً قبلنا يقولون لا قدر " ، وأعلن رضي الله عنه البراءة منهم ؛ فأدرك نشأة بدعة القدرية .

والخوارج خرجوا على علي رضي الله عنه وناصروه العداء وكفروه رضي الله عنه وأرضاه فأدرك من عاش من الصحابة نشأة البدع من بدعة القدرية والخوارج وكذلك بدء عقيدة الروافض وغيرها من البدع التي بدأت تنشأ ؛ فأدرك الصحابة رضي الله عنهم بدء هذه البدع وحاربوها وذكرها ضلال أهلها ومخالفتهم للحق والهدى ولدين الله تبارك وتعالى .

[سادساً : قوله " فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ " : لما أخبر صلى الله عليه وسلم حصول التفرق وكثرته أرشد إلى طريق السلامة والنجاة وذلك بالتمسك بسنته وسنة خلفاء الراشدين ، وخلفائه الراشدون هم أبوبكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ، وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم خلافتهم بأنها خلافة نبوة كما جاء في حديث سفينة رضي الله عنه " خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم يؤت الله الملك أو ملكه من يشاء " رواه أبو داود وغيره وهو حديث صحيح أورده الألباني رحمته الله في السلسلة الصحيحة ونقل تصحيحه عن تسعة من العلماء .

قال ابن رجب رحمته الله والسنة هي الطريقة المسلوكة ويشمل ذلك التمسك بما كان عليه هو وخلفائه الراشدون من الاعتقادات والأعمال والأقوال ، وهذه هي السنة الكاملة ولهذا كان السلف قديماً لا يطلقون اسم السنة إلا على ما يشمل ذلك كله ، وروي معنى ذلك عن الحسن والأوزاعي والفضيل بن عياض وكثير من العلماء المتأخرين يخص اسم السنة بم يتعلق بالاعتقادات لأنها أصل الدين والمخالف فيها على خطر عظيم ، وقد حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على التمسك بسنته وسنة خلفاء الراشدين بقوله " فعليكم " وهي اسم فعل أمر ، ثم أرشد إلى شدة التمسك بها بقوله " عضوا عليها بالنواجذ " ، والنواجذ هي الأضراس وذلك مبالغة في شدة التمسك بها [.

الشرح ..

قوله صلى الله عليه وسلم "فعليكم بسنتي" : المراد بالسنة هنا هو هديه عليه الصلاة والسلام جميعاً - في العقيدة والعبادة والسلوك - ، ليس المراد بالسنة جانب العمليات فقط ؛ بل المراد بالسنة العقيدة والعبادة والسلوك ، ومثل ما قال بن رجب : الطريقة المسلوكة أي التي كان عليها صلوات الله وسلامه عليه في العقيدة والعبادة والسلوك .

فالذي يكون على السنة هو الذي يكون على هدي النبي صلى الله عليه وسلم عقيدةً وعبادةً وسلوكاً . وهذا خلاف حال من يختار له في كل باب من هذه الأبواب مسلكاً ؛ فيقول : أنا في العقيدة كذا ، وفي العبادة كذا ، وفي السلوك كذا .. ؛ فهذا من الأمور التي حذر منها النبي صلى الله عليه وسلم ومن التفرق في الدين ، والواجب على المسلم أن يكون على السنة عقيدةً وعبادةً وسلوكاً ، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم .

[سابعاً : قوله " وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة " في رواية أبي داود " وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة " محدثات الأمور ما أحدث وابتدع في الدين مما لم يكن له أصل فيه ، وهو يرجع إلى الاختلاف والتفرق المذموم الذي ذكره النبي صلى الله عليه وسلم في قوله " فإنه من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً " ، وقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم كل البدع بأنها ضلال فلا يكون شيء من البدع حسناً لعموم قوله صلى الله عليه وسلم " وكل بدعة ضلالة " قد روى محمد بن نصر في كتابه السنة بإسنادٍ صحيح عن عمر رضي الله عنه قال " كل بدعة ضلالة وإن رآها الناس حسنة " ، وذكر الشاطبي في الاعتصام عن بن الماجشون قال سمعت مالكا يقول " من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً خان الرسالة لأن الله تعالى يقول { اليوم أكملت لكم دينكم } فما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون اليوم ديناً " ، وقال أبو عثمان النيسابوري " من أمّر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة ومن أمّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة " أنظر حلية الأولياء .

وأما الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه " من سنَّ في الإسلام سنةً حسنةً فله أجره وأجر من عمل بها " فهو محمول على القدوة الحسنة في الخير كما هو واضح من سبب الحديث وهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حثَّ على الصدقة ؛ فأتى رجل من الأنصار بصرة كبيرة فتابعه الناس على الصدقة فعند ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال ،

وهو محمول أيضاً على من أظهر سنة رسول الله ﷺ وأحيائها كما حصل من عمر رضي الله عنه في جمع الناس على صلاة التراويح في رمضان ؛ فإنه إظهار لسنة ﷺ لأنه ﷺ صلى الله عليه وسلم صلى الناس قيام رمضان في بعض الليالي وتركه خشية أن يُفرض عليهم كما في صحيح البخاري ، فلما توفي الرسول ﷺ ذهب ما كان يُخشى من الفرض بانقطاع التشريع بوفاة ﷺ فبقي الاستحباب ، فأظهره عمر رضي الله عنه وهو أيضاً من سنة الخلفاء الراشدين ، وما جاء عنه رضي الله عنه من قوله " نعم البدعة" كما في صحيح البخاري ؛ يريد إظهار صلاة التراويح ، يُراد به البدعة اللغوية ، ومثل ذلك زيادة عثمان رضي الله عنه الأذان يوم الجمعة وقد وافقه عليه الصحابة رضي الله عنه ؛ فهو من سنة الخلفاء الراشدين ، وما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه بدعة فهو محمول إن صح على البدعة اللغوية] .

الشرح..

المراد بـ " محدثات الأمور" ما أحدث وابتدع في الدين مما لم يكن له أصل فيه ؛ وهذا أمرٌ ذمه النبي ﷺ ، والزم عام وشامل لا يستثنى منه شيء ؛ فكل بدعة ضلالة ، ولو كان شيء من هذا يُستثنى لاستثناء النبي عليه الصلاة والسلام نصحاً للأمة ، لو كان في هذا العموم شيء يستثنى لاستثناء عليه الصلاة والسلام ولجاء قوله "كل بدعة ضلالة إلا بدعة حسنة أو أمراً حسناً أو نحو ذلك " ، مثل ما استثنى عليه الصلاة والسلام في قوله "كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبي " ، فإذا كان في العموم استثناء فالنصح يقتضي ذلك ، والنبي ﷺ أطلق ولم يستثنى ؛ فقال "كل بدعة ضلالة" فكيف يتجرأ إنسان ويستثنى من هذا الذي أطلقه النبي ﷺ ؟

والبدعة : الأمر الذي أحدث في الدين مما ليس له أصل ، وفي هذا المقام قد يشبه من أحدث أو استحسنوا البدع المحدثه قد يُشبهون ببعض النصوص التي لا تدل على مرادهم ؛ مثل قوله عليه الصلاة والسلام "من سن في الإسلام سنة حسنة" ؛ فهذا محمول عند أهل العلم على القدوة الحسنة في الخير ؛ كأن يكون رأيهم مقصرين في بعض السنن فشجعهم عليها وسبقهم إلى فعلها وعملوا به يكون بذلك سن فيهم سنة حسنة . أما الذي يدلهم على بدعة هذا لم يسن فيهم سنة حسنة بل سن فيهم ضلالة .

وكذلك قول عمر "نعم البدعة" في صلاة التراويح على إمام واحد ، والأمر الذي جمعهم عليه له أصله وأساسه من سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ؛ فيكون قوله "نعم البدعة" محمول على إظهار السنة ، فمن حمله على اختراع البدعة فهو مجانب للصواب .
وهكذا ما يتعلق به من يستحسنون البدع ؛ كله لا متعلق لهم به ، والأمر كما قال الصحابي الجليل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما "كل بدعة ضلالة وإن رآها الناس حسنة " ؛ يعني لا عبرة باستحسان الناس للبدعة ؛ فالبدعة كلها ضلال .

[ثامناً مما يستفاد من الحديث :

أولاً : استحباب الموعظة والتذكير في بعض الأحيان لما في ذلك من التأثير على القلوب .

ثانياً : حرص الصحابة رضي الله عنهم على الخير لطلبهم الوصية منه صلى الله عليه وسلم .

ثالثاً : أن أهم ما يوصى به تقوى الله عز وجل وهي طاعته بامثال أمره واجتناب نهيه .

رابعاً : أن من أهم ما يوصى به السمع والطاعة لولاة الأمور لما في ذلك من المنافع الدنيوية والأخروية للمسلمين .

خامساً : المبالغة في الحث على لزوم السمع والطاعة ولو كان الأمير عبداً .

سادساً : إخبار النبي صلى الله عليه وسلم عن وجود الاختلاف الكبير في أمته ثم حصوله كما أخبر من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم .

سابعاً : أن طريق السلامة عند الاختلاف في الدين لزوم سنته صلى الله عليه وسلم وسنة الخلفاء الراشدين .

ثامناً : بيان فضل الخلفاء الراشدين وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم وأنهم راشدون مهديون .

تاسعاً : التحذير من كل ما أحدث في الدين مما لم يكن له أصل فيه .

عاشراً : أن البدع كلها ضلال فلا يكون شيء منها حسناً .

الحادي عشر : الجمع بين الترغيب والترهيب لقوله في الترغيب فعليكم وفي الترهب وإياكم .

الثاني عشر : بيان أهمية الوصية بتقوى الله والسمع والطاعة لولاة الأمور واتباع السنن وترك البدع لكون النبي صلى الله عليه وسلم أوصى الصحابة بها بعد قوله عن موعظته كأنها موعظة مودع فأوصنا

[.

سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم صلّ وسلّم على عبدك
ورسولك نبينا محمد و آله وصحبه

..*